يَومَ أنْ أسْلَمتُ

يَوم أن أسلمتُ

رغد أيمن

أراكَ الآن يا ولدي الغالي، قد كبرتَ واشتدّ عودك.. قد نشأتَ يا ولدي وتربيتَ على الإسلام.. وُلدتَ مُسلماً، لوالدَين مسلمَين مؤمنَين ولله الحمد!

ولكن هل تعلم أنني -جدتكَ- لم أُولد مسلمة مثلك؟
بل وهل تعلم أنني مكثتُ طويلاً قبل أن أتخذ قراراً كهذا؟
وتالله كان نِعم القرار، فالحمد لله أن هداني للإسلام..

أراكَ مُتحمساً لتعلم كيف أسلمتُ، لا بأس.. لن أبخل عليكَ بأجمل ذكرى لي، فاسمع مني..

كما فهمتَ، نشأتُ بين أسرة مسيحية وبالتأكيد كنتُ مسيحية مثلهم.. ألحقني والداي بمدرسة مسيحية..
كانا يخشيان عليّ -كأي أبوين- من الاختلاط العميق بالمسلمين لكيلا أتطبّع بدينهم.. وطوال هذه الفترة كانا يعلمانني ويربيانني على المسيحية؛ حتى أصبح مثلهم..
مسيحية متدينة لا أتأثر بأي دين آخر..
كان لِزاماً عليّ أن أذهب معهم إلى الكنيسة، وأن أحضر الدورات والمعسكرات التي تُقام هناك..
كنتُ أذهب فقط احتراماً لهم، ولكني كنتُ أرى كل ذلك هراءً! ليس لأني أرغب الدخول في دين آخر، ولكني كنتُ

أرى أن يلتزم المرء بدين معين، وتعاليم محددة شيئاً مُقيداً للحرية!
لماذا لا يصبح المرء هكذا، غير ملتزم بدين معين، أو شرائع وقوانين محددة.. فقط يتبع هوى نفسه؟!
بالطبع كنتُ أُخفي خواطري هذه عن والديّ، فبالتأكيد ردة فعلهم لن تكون أفضل شيء بالنسبة لي!

كان أول تعامل لي مع أشخاص مسلمين، في المرحلة الثانوية..
أراكَ تتساءل يا ولدي، هل تراجع والداي عن وجهة نظرهم؟ فأخبركَ أن "لا".. ولكنهم ظنوا أني هكذا أصبحتُ ذات عقل ناضج، يستطيع التمييز بين ديننا ودين الغير..

لا، لم يكن والديّ متعصبَين تجاه الأديان الأخرى.. ولكنهم كأي شخص مؤمن أن دينه الذي يَدين به هو الصواب.. وإلا فلِمَ هو ماكثٌ عليه؟!

كان صفّي به نسبة كبيرة من المسلمات.. كنا نتعامل مع بعضنا بشكل عاديّ..
لم تلفت انتباهي منهن، سوى فتاتَين.. على النقيض تماماً من بعضهن..

كانتا تدينان بالإسلام، ولكن واحدة منهن لم يظهر عليها ذلك مطلقاً..
كانت تُدعى **"سلمى"**، كانت غير ملتزمة بالحجاب الإسلام، بذيئة الألفاظ.. أفعالها وكلامها يدل على أنها لا تمتُّ إلى الإسلام بأدنى صلة**!**

أما الثانية، فكان اسمها **"شذى"**، وكما قلتُ كانت على النقيض منها.. خلوقة ذات لباس جميل ومحتشم**!**

كنتُ أمقتُ الأولى وأحتقرها بشدة.. رغم أننا كنا نضحك أحياناً معاً**!**
ولقد علمتُ أني لستُ الوحيدة التي تُكن لها مشاعر البُغض تلك.. الآن أنا أدعو الله أن يهديها**!**
أما **"شذى"**.. فلقد كنتُ أحبها، كانت مرآة جميلة للإسلام، وبالطبع لأهلها..

ذات مرة، كنا مُتفرغين من الحصص.. فجلست كل الطالبات مع بعضهن.. نضحك ونمرح ونتحدث في شتى المواضيع، وكانت الفتاتان اللتان ذكرتهما لكَ تجلسان معنا..
فجأة وجدنا **"سلمى"** تسألنا بخبث، وجرأة كرهناهما فيها:
- ألا توجد فيكن من ارتبطت بشاب؟ هيا لا تخجلن**!**

اختلفت الحاضرات بين خجولة، وجريئة بعض الشيء مثلها.. واللاتي صمتن يستمعن فقط..

ما لفت انتباهي وقتها قيام تلك الفتاة **"شذى"** من الجلسة بعد سماعها ذلك السؤال الجريئ..
ولكنها قبل أن ترحل، قالت بحدة على غير عادتها:
- ألا تخجلن أنتن من الله؟ أو حتى من أنفسكن؟ اتقين الله ولا تقلن مثل هذا الكلام، فأنتن مسلمات**!**

طبعاً كان الحديث موجهاً لـ**"سلمى"** فهي البادئة**!**
نظرتُ لها بسرعة فوجدتُها تلوي فمها بسخرية**!**

جلست **"شذى"** في بداية الصف، على مقعد بمفردها..
ففكرتُ أن أذهب لأجلس معها، خصوصاً أن حديثهن هذا لا يهمني قيد أنملة..

انتظرت دقيقتين، ثم قمتُ لأجلس قُبالتها..
ابتسمتْ لي، ثم أخرجت قطعة حلوى وأعطتها لي.. أخذتُها منها بسرور كطفلة، ثم بادرتُها:
- لقد رأيتكِ على غير عادتكِ، منفعلة غاضبة.. فلمَ الغضب؟ كان من الممكن أن تُكملي الجلسة ولا تُشاركي معهن.. أو على الأقل ترحلي دون هذا الانفعال**!**

ابتسمت لي مرة أخرى، وخاطبتني بهدوء:

- انفعلتُ غيرة على ديني.. كيف أرى الله يُعصى وأصمتُ كالخِراف؟! أما لماذا لم أُكمل الجلسة، وإن لم أشارك فيها.. فهكذا سأكون مُشاركة في الإثم، لأني لم أنصحهم أو أُعلمهم بخطأهم!

أعترفُ، وقتها أُعجبتُ بها بشدة! نظرتُ إلى الفتيات الجالسات، ثم تحدثتُ إليها كأني أفكر بصوت عالٍ:

- أتسائل، لماذا تفعل فتاة مسلمة شيئاً كهذا؟!

ثم نظرتُ لـ**"شذى"** وأكملتُ بتعجّب:

- ألا يوجدُ في الإسلام ما يدعو الفتاة إلى الحياء في التعامل؟

ضحكتْ بخفة وأجابتني بابتسامة واسعة:

- بلى.. إن ديننا بالأصل يدعو إلى الحياء للرجل والمرأة على السواء! ولكنكِ بالتأكيد تعلمين، الأشخاص في كل الأماكن والأزمنة، وفي كل الأديان والعقائد.. منهم الصالح، ومنهم الفاسد.. منهم من يُحاول الالتزام بدينه فلا يُخطئ، ومنهم من لا يلقى بالاً لذلك، فيفعل الأشياء السيئة.

شعرتُ بالراحة في الحديث معها، وشعرتُ بالثقة تجاهها وأنها ذات عقل راجح، وعلمٍ جيد.. فسألتُها بنبرة خافتةٍ مُستهترة:

- كما تعلمين، أنا مسيحية اسماً ونشأة، وعائلة.. ولكن بصراحة لستُ مقتنعة بأن الإنسان يجب أن يدين بدين معين.. قواعد وشرائع والتزامات، لماذا لا يُصبح المرء مِلكَ نفسه، لا شيء يُلزمه؟!

اقتربت مني، وأسندت ذراعيها على الطاولة.. ثم ابتسمت وأجابتني:

- حسناً، انظري.. إن الإنسان بطبعه يحتاج إلى شيء يُلزمه، فطبع الإنسان إن لم يُلزمه شيء، سينحرف عن الطريق الصحيح.. والإنسان العاقل إذا عُرض عليه قانون، أحكم عقله فيه ثم اتّبعه.. والإنسان العاقل أيضاً من يَدين بدين، يعتقد تماماً أنه صواب.. يلتزم بشرائعه!

سألتُها بابتسامة خبيثة، وأنا أريد وضعها في الركن الضيّق:

- وما هو الدين الصحيح؟

ابتسمتْ، وأجابتني إجابة ما زلتُ أذكرها حتى يومنا هذا:

- كلٌّ بوجهة نظره أن دينه هو الصواب.. فاليهودي متيقن أنه على حق، وإلا فما ظل على دينه.. والمسيحي معتقدٌ أنه على حق.. وبالتأكيد المسلم يعتقد أنه على حق، وهو كذلك.. والفيصل في ذلك كله شرائع الدين.. فديننا

الإسلام متامسكةٌ شرائعه، مترابطة تعاليمه.. ليس فيه تناقض أو إجحاف.

قلتُ لها مرة أخرى، وقد تحمستُ للحديث عن الموضوع:
- لقد قلتِها.. فأنتِ من وجهة نظركِ أن دينكِ هو الصواب!
قاطعتني بضحكة وابتسامة:
- بل هو الصواب.
لم أهتم، وأكملتُ:
- إذاً لماذا اسمها أديان سماوية؟ أوَليست جميعها صواب، ما دامت كلها من عند الله؟

لم تتزحزح الابتسامة عن ثغرها، وقالت:
- نعم اسمها أديان سماوية، ويوم أُنزل الإنجيل على سيدنا عيسى، وأُنزلت التوراة على سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام.. كان دينهما صواباً لا خطأ فيه، وكل من آمن بهما وقت حياة النبيَّين، واتّبع شرائعهما سيدخل الجنة بإذن الله.. ولكن بعد أن مات موسى، ورُفع عيسى عليهما الصلاة والسلام.. حرّف المسيحيون في الإنجيل، وتلاعبوا بشرائعه وغيّروا تفسير بعض الأحكام لتصبح على أهوائهم، وكذا فعل اليهود أيضاً.. وأكبر دليل على ذلك، أن المسيحين في أوروبا، لهم إنجيل غير الذي في مصر أو لبنان مثلاً.. أما الإسلام، فقد كتب الله عليه أن

يُحفظ حتى قيام الساعة.. انظري مثلاً للمسلم في أمريكا، وللمسلم في أستراليا، وللمسلم في الجزائر أو البحرين.. سترين أن القرآن الكريم.. كتاب الله، وأصحُّ الكتب.. واحدٌ وآياته واحدة في كل الدول، وبين كل المسلمين.

صمتت قليلاً لتأخذ نفساً ثم أكملت:

- زمن سيدنا موسى عليه السلام، كانت التوراة هي الصحيحة؛ لأنها لم تكن مُحرّفة.. ولكن بعد أن مات، أصبح من يتبع التوراة المحرّفة ليس على صواب..
زمن سيدنا عيسى عليه السلام، كان الإنجيل هو الكتاب الصحيح، والمسيحية هي الدين الصحيح.. وبعد أن رفعه الله إليه، وبعد أن تلاعب الناس بأحكام الإنجيل، أصبح من يتّبعه مُحرّفاً، باطل..
وبعد نزول الإسلام على سيدنا ونبينا محمد ﷺ، أصبح هو الدين الحق، وحفظه الله تعالى من أن يُحرّف.. نحن المسلمون نؤمن بالكتب السماوية الصحيحة، التي أُنزلت على الأنبياء.. ونتبرأ من المحرّفة -التي هي موجودة اليوم-.

انتهت هذه الجلسة، فلم يُصادف بعدها أننا جلسنا مِثلها مرة أخرى، إلا بعد زمن طويل..

رجعتُ بعدها إلى منزلي، وألقيتُ حديثها وراء ظهري.. فلم أتذكره إلا بعد عُمُر طويل.. مع أني في قرارة نفسي كنتُ شبه مُقتنعة بحديثها، ولكني وقتها لم أكن مستعدة أن ألتزم بأحكام دين، ولو علمتُ أن هذا دينٌ صحيح!
نعم كنتُ مسيحية، ولكن ظاهراً.. أما باطِناً فلا شيء بالمعنى الحرفي للكلمة!

*****

مرت السنين، وتخرجتُ من الجامعة.. لم أرَ **"شذى"** منذ الثانوية، وقد حدثت الكثير من الأحداث في الخمس سنوات الفائتة..

مات أبي.. كنتُ أُحبّه جداً، كان حنوناً معي ودائماً ما نتحدث معاً دون حواجز.. كان يفهمني دون أن أتحدث، ولم يسبق له أن ضربني، ولو كنتُ مخطئة.. يتحدث معي بهدوء؛ ليُعلمني خطأي.. ولمّا تذكرته الآن تضاعف حزني عليه؛ فقد ماتَ على غير الإسلام!

وقفتُ أنا وأمي بالرداء الأسود أمام قبره، بعد أن رحل المُعزّون.. ركعتُ على ركبتيّ بوهنٍ، وبدأتُ أُخاطبه بدموع تهطل على التراب، تبلله:

- لماذا رحلتَ يا أبي؟ ها.. لقد كنتُ أحبكَ أكثر من نفسي.. هل أحزنتكَ لترحل.. أرجوك عُد، وسأكون فتاة مطيعة.

ثم انطلقتُ في بُكاءٍ عنيف! فجلست أمي بجواري وأخذتني لحضنها بسرعة.. أخذت تمسح على ظهري ونحن نبكي معاً، فلمّا هدأتُ كنتُ قد اتخذتُ قراري.. قررتُ أن أكون كما أراد أبي.. مسيحية متدينة!

هدأتُ ثم نظرتُ إلى القبر، وقلتُ بخفوت:

- فلتهنأ روحكَ يا أبي!

*****

بعدها تقدمتُ إلى وظيفةٍ في بنكٍ مَشهور..

أظن أنني كنتُ متفوقة في هذه المهنة.. فقد كنتُ أنال إعجاب مديري المباشر، والعام.. وبالتأكيد حسد الكثير من زملائي!

*****

ذات يوم كنتُ جالسة.. فرأيتُ رجلاً قد اقترب يُريد إيداع مبلغ..
اعتقدتُ وقتها أنه أكبر مني بخمس سنوات على سبيل المثال!
كنتُ أقوم بالإجراءات وأنا غير مُنتبهة له، ولكني لما رفعتُ وجهي رأيته يُحدّق بي، وابتسامة غريبة على ثغره..

خجلتُ جداً وقتها، وأعتقدُ أن وجنتاي احمرّتا.. حمحمتُ لأُنهي هذه المُقابلة العجيبة.. ولكن يبدو أن للقدر رأيٌ آخر..

كان يتردد كثيراً.. يسحب مبلغاً، ويُودع آخر، ولكن ما لم أفهمه وقتها، لماذا كان يقصدني أنا بالذات؟ هناك الكثير من الموظفين غيري، وأحياناً يكونون متفرغين على عكسي!
حتى وجدته ذات يوم واقفاً أمامي.. سألتُه بخجل حاولتُ معه أن أكون جادة:
- هل تريد إيداع مبلغ، أم سحبه سيدي؟
أجابني بابتسامة واسعة:
- أتزوجكِ!
تلعثمتُ وأجبته بتساؤل:
- معذرة؟!
أعاد مرة أخرى:
- أريد أن أتزوجكِ!

ثم نظر إلى البطاقة البلاستيكية، التي أُعلّقها، مُكملاً:
- آنسة **"ماري"!**
ثم أكمل مُعتذراً:
- معذرةً لم أعرفكِ بنفسي.. اسمي **"ديفيد"**، وأنا أعمل مُحاسباً بشركة (   ) للأغذية.

كنتُ يا ولدي من عائلة مُحافظة.. إضافةً بالطبع أنني كنتُ ذات طابع شرقي أصيل.. لذا أعطيته رقم والدتي..

ثم وجدتُني بعدها بأسبوع أرتدي فستان الخطبة، جالسة في القاعة بجانب **"ديفيد"**، يمسك يدي ويضع فيها خاتم الخِطبة، وأفعل المثل معه..
كان يزورني، أو نخرج مع بعضنا.. كلما قابلني أو حادثني، أخبرني أنه يُحبني..

وبعد الخِطبة بثلاثة أشهر، أخبر والدتي أنه لا يقدر على الانتظار أكثر، وأنه يريد تحديد موعد الزفاف.. وقتها قالت لي والدتي بمرح:
- إنه الحب وأفعاله**!**

في الحقيقة كان حنوناً معي، رقيقاً بشكل لا يُوصف.. لا يَهون عليه حُزني، وكان يسعى لإرضائي بكل الطرق!

حتى أننا كنا مجتمعين ذات مرة في مطعم مع صديقه وزوجته، فقال صديقه لي مازحاً:

- أتعلمين أن **"ديفيد"** قبل أن يلقاكِ كان حازماً، وجاداً بشكل مُبالغ فيه.. حتى أني كدتُ أظنه بلا قلب.

فعلاً، كان **"ديفيد"** معي ذاك القاسي الذي يلين من أجل حبيبته.. كما يقولون!
وكما يقولون أيضاً أن **"الزين ما يكمل"**، فقد كنا لا نُنجب!
حاولنا أكثر من مرة، وذهبنا لأكثر من طبيب، ولكن لا فائدة!

فقال لي وقتها بحنانٍ وحب:
- لا يهم الأطفال.. أنتِ طفلتي، وأنا مُكتفٍ بكِ!

كانت الأيام تسير هادئة، حتى كان ذلك اليوم..
كنتُ جالسة ذات مرة، حتى وجدتُ فتاة جميلة تقترب مني.. كانت ترتدي زياً فضفاضاً، وحجاباً جميلاً، شعرتُ أني رأيتُها من قبل ولكن لا أذكر أين.. ألقت السلام عليّ، ثم قالت بابتسامة:

- أريد سحب خمسة آلاف جنيه.. باسم **"شذى محمد"**.

توقفتُ قليلاً عند هذا الاسم.. نعم إنه هو، ولا أظن قانون الصُدف يسير بهذه السلاسة معي**!**

نظرتُ إليها بابتسامة مُتسعة، وسألتها:

- معذرة، ولكن ألم تكوني مُلتحقة بمدرسة (   ) الثانوية؟

عقدت حاجبيها وقالت بابتسامة حائرة:

- أجل، هل تعرفينني؟

شعرتُ بالحزن لوهلة، وقلتُ:

- أنا **"ماري"**، كنتُ معكِ بالفصل.. ألا تذكرين مُناقشة الأديان؟

ضحكتْ مُتذكرة وقالت:

- ياااه، أجل تذكرت.. كيف حالكِ الآن؟ معذرة لم أتعرف عليكِ فلقد تغيرتِ بعض الشيء.

سألتُها بمكر أنثوي:

- للأجمل، أم للأسوأ؟

ابتسمت ونظرت ليدي اليسرى، تحديداً خاتم الزواج وقالت بمزاح:

- لو لم تكوني جميلة، لما كنتِ تزوجتِ**!**

ضحكنا سوياً، ثم أنهيتُ لها ما كانت قد طلبت.. تبادلنا الأرقام هذه المرة على وعدٍ منا باللقاء مرة أخرى..

*****

عُدتُ إلى المنزل، وبدأتُ في إعداد الغداء.. وجبة سريعة من المعكرونة والدجاج ستفي بالغرض..

عاد زوجي من العمل، فجلسنا نأكل سوياً مع مزاحه ومغازلته المستمرة.. تذكرتُ شيئاً فصحتُ بحماس:

- أتعلم؟ اليوم قابلتُ صديقة قديمة لي منذ الثانوية، سعدتُ كثيراً بلقائها بعد هذه المدة، وقد تواعدنا باللقاء مرة أخرى.

ابتسم باتساع، ثم قال:

- وأنا سعيد؛ لأنكِ سعيدة يا حبيبتي الجميلة**!**

هاتفتُها في نفس اليوم، كنتُ أريد أن نلتقي ونتحدث كما المرة الوحيدة السابقة.. اتفقنا أن أزورها في منزلها، فقد رفضت رفضاً تاماً أن تأتي هي..
بصراحة لم أكن أعلم وقتها لماذا رفضت بهذا الإصرار أن تأتي.. لربما لأني مسيحية، ودينها ينهاها عن ذلك؟ لم أعرف إلا في اليوم الذي زُرتها فيه..

استقبلتني هي ووالدتها بترحاب.. ثم ذهبتُ مع **"شذى"** لنجلس في غرفتها.. أغلقتْ الباب، وقالت:

- هكذا أفضل، حتى نأخذ راحتنا.

بادرتُها بالسؤال:
- **"شذى"**.. لماذا رفضتِ أن تأتي إليّ؟ هل دينكِ ينهاكِ عن زيارة المسيحيين؟
ارتسمت ابتسامتها الجميلة على وجهها وقالت:
- لا، ولكنكِ متزوجة.. وقد يأتي زوجكِ في أية لحظة.. كما أن والديّ لن يسمحا لي بالذهاب وحدي إلى منزل يقطن به رجل غريب، وعلى غير ديني.. حتى وإن كانت زوجته صديقتي وتجلس معي.. أنا نفسي لن أرضى بالذهاب!
شعرتُ بالضيق لوهلة من حديثها.. ولكني ما لبثتُ أن استعدتُ مرحي الأول وقلتُ لها:
- ها.. هاتِ ما لديكِ من حديث!
ابتسمتْ، وسألتني:
- وعن أي شيء تريدين أن نتحدث؟
هززتُ كتفيّ، وقلتُ لها:
- لا أعلم، ولا يهمني.. فأنا أحبّ كل أحاديثكِ.
تفكرتْ قليلاً، ثم طرقعت إصبعيها وقد وجدتْ شيئاً:
- ما رأيكِ أن أُحدثكِ عن النبي ﷺ؟
هززتُ رأسي بحماس أن "نعم"، فلقد كنتُ متشوقة أن أعرف شيئاً عن هذا الرجل..
ابتسمتْ باتساع، ثم قامت وذهبت إلى مكتبتها.. لأول مرة ألاحظ المكتبة، كانت بها كتباً كثيرة ومجلداتٍ، اعتقدتُ وقتها

أن بها علماً غزيراً، وقد صحَّ ظني.. قمتُ من جلستي ووقفت جوار مُضيفتي.. كنتُ أقرأ العناوين بصوت عالٍ.. **"الرحيق المختوم"**، **"صفوة الصفوة"**، **"صيد الخاطر"**، **"السيرة النبوية"**..

والكثير من الاسماء التي تشبه ذلك..

ظلت عيناي تجوبان، حتى وقعتا على الكلمة العظمى..

"القرآن الكريم".. مددتُ يدي وأمسكته، فسحبته **"شذى"** مني بلُطف وقالت:

- أنا آسفة، ولكن **(لا يمسه إلا المطهرون)**.

تفهمتُ موقفها، إنه كتابهم، كما الإنجيل عندنا.. وبالتأكيد سيحترمونه كما نحترم نحن كتابنا.. رأيتها تُقبّل **"القرآن"** ثم تضعه في مكانه..

وما كادت تسحب كتاب **"السيرة النبوية"**، حتى طُرق الباب ودخلت والدتها بابتسامة، تحمل صينية عليها طعام الغداء..

نظرنا إليها بابتسامة، ثم وجهت حديثها لـ**"شذى"** بمرح:

- لا تدعيها ترحل قبل أن تُنهي هذا الطعام.. يبدو أنهم لا يُطعمونها جيداً.

ضحكنا معاً.. ثم نظرت إليّ **"شذى"** قائلة:

- أرايتِ، لم أقل شيئاً من عندي**!** هيا سنأكل، ثم نبدأ الدرس.

كانت الصينية كبيرة، عليها طعام يكفي عشرة رجال أشداء، وليس فتاتين..

جلسنا نأكل وسط الحديث والمزاح..

وبعد أن أنهينا وغسلنا أيدينا، عُدنا للغرفة، فسألتُ **"شذى"**:

- غريبة أنكم أطعمتموني في نفس الآنية التي تأكلون منها، بل وأكلتُ معكم أيضاً**!**

قهقهت **"شذى"**، ثم أجابتني:

- لستِ نجسة، أو حيواناً لنعاملكِ هكذا.. حتى بعض الحيوانات إن دخلت علينا ونحن نأكل، فلا نطردها.. كالقطط مثلاً، بل نُطعمها ونُحسن إليها، هكذا أمرنا ديننا.

سألتُها بتعجب:

- ولكنكِ سحبتِ مني كتابكم، وقلتِ لي: **(لا يمسه إلا المطهرون)**.. فما هذا التناقض؟

ابتسمتْ، وقالت:

- ليس تناقضاً، فالقرآن الكريم كتابٌ طاهر، لا يُمسكه إلا من تطهر.. أي يجب على من يريد إمساكه والقراءة فيه أن يغتسل إن كان جُنباً، أو أنهت حيضها.. أو يتوضأ إن كان مُحدثاً حدثاً أصغر.

زفرتُ الهواء من صدري وقلتُ:

- انظري، بعض كلامكِ مفهوم سلس كالماء، وبعضه صعب معقد كالرياضيات.. ولكني فهمتُ أنه لا بأس إن طعِمتم مع المختلف معكم في الدين.

صححتْ لي:

- إن كان طعامُه حلالاً مما نأكل، كألا يكون خمراً أو لحم خنزير.. وأن يكون مذبوحاً على الطريقة الإسلامية، أي أن يقول الذابح: الله أكبر، بسم الله!

قلتُ لها بضيق:

- مشكلتكم المسلمون أنكم تعتقدون أن المسيحيين واليهود، يشربون الخمر ويتناولون لحم الخنزير، كشربكم للماء.. المسيحيون واليهود كأي شخص آخر.. منهم الصالح ومنهم الفاسد.. كما قلتِ أنتِ من قبل..
لسنا كلنا نشرب الخمر، ونأكل لحم الخنازير.. أنتم أنفسكم منكم مسلمون يشربون الخمر، ويفعلون أشياء سيئة.. فلمَ تحصروننا فقط في هذه الدائرة؟

بدا أنها استاءت لذِكري أن بعض المسلمين يرتكبون هذه المعاصي.. أردتُ أن أُذيب هذه الغمامة المفاجأة علينا، فقلتُ لها بمرح:

- هيا، ألن تعطيني الدرس يا معلمتي؟

ضحكتْ، وقد كانت بطيئة الغضب، سريعة الرضا.. لا أعتقد أنها غضبت قط لأمر من أمور الدنيا.. في المرات التي التقينا فيها قبل ذلك وبعدها.. كانت إذا غضبت؛ فلأنها تغار على دينها، وفقط!

ولم تكد تفتح الكتاب، وتبدأ في الحديث.. حتى وجدتُ هاتفي يرن..كان **"ديفيد"**..
اعتذرتُ منها، ثم أجبت.. وجدتُ صوته يسبقني:
- عزيزتي، كيف حالكِ.. لقد اشتقتُ إليكِ كثيراً!

احمرّت وجنتاي، فوجدتُ **"شذى"** تخرج من الغرفة.. أجبتُه بخجل:
- **"ديفيد"!**
قهقه بمرح، وقال:
- أما زلتِ تخجلين مني؟ اه يا **"ماري"**، كم أحبكِ!
قلتُ:
- أنا أيضاً أحبكَ كثيراً!

خِلتُ أنه ابتسم باتساع كعادته كلما قلتُ له ذلك.. فسألني بمرح:
- إذاً **"صغيرتي"**.. متى ستأتين؟ أظن أن الوقت تأخر؟
نظرتُ إلى الساعة، ثم شهقت.. كانت تشير إلى التاسعة والنصف، قلتُ له بسرعة:
- أنا آسفة جداً.. لقد مرّ الوقت ولم ألحظ ذلك.. سآتي بسرعة.
ضحك قائلاً:
- على رسلكِ يا فتاة.. هل تريدين أن آتي لتوصيلكِ؟

كنتُ ألملم حقيبتي وأنا أقول:

- لا، لا تقلق يا عزيزي سآتي أنا.. إلى اللقاء.

أنهيتُ المُكالمة، ثم فتحتُ الباب لأخرج.. وجدتُ **"شذى"** تنظر لي بحزن، وقالت:

- ستغادرين؟

هززتُ رأسي بالإيجاب مُحرجة، ثم قلتُ بسرعة:

- لا تقلقي.. سنعوّض هذه الزيارة في وقت آخر.

ابتسمت قائلة:

- بإذن الله.

ثم ناولتني كتاب السيرة، وقالت:

- ما رأيكِ أن تقرأي فيه بنفسكِ.. أظن أنكِ ستعيشين الأجواء بشكل أفضل.

أخذتُ منها الكتاب شاكرة، ثم احتضنتها واحتضنتني والدتها بلُطف، وغادرتُ المنزل..

*****

عندما عدتُ لمنزلي، لم أستطع أن أتمالك نفسي.. جلستُ في الصالة، وبدأتُ رحلة القراءة، بينما كان **"ديفيد"** يعمل في مكتبه..

كانت ساعتان مليئتين بالكثير من المشاعر.. كأني كنتُ أعيش في ذلك العصر!
ارتجفتُ معه يوم نزل عليه الوحي!
تألّم قلبي يوم قال له ذاك الرجل **"ورقة بن نوفل"** أن قومه سيُخرجونه من وطنه!
سعدتُ كثيراً بدفاع **"حمزة بن عبد المطلب"** عن ابن عمه، وإسلامه بعدها!
وفرحتُ أكثر بفرح النبي **"محمد"**، عندما جاءه **"عمر بن الخطاب"** مُسلماً، بعد أن كان سيقتله!

وما كدتُ أصل إلى اختباءه في الغار مع صديق عمره **"أبو بكر"**.. حتى قاطعني **"ديفيد"**:
- أنتِ تقرأين؟ هذا غريب، فقد كنتُ أتحايل عليكِ لتقرأي رواية (روميو و جولييت).. وأنتِ ردكِ الدائم: لا أحب القراءة، وليس لي مِزاج لها.. فما الذي تغير؟
ضحكتُ بمرح، ثم أجبتُه:
- إنه كتاب أعطتني إياه صديقتي، ربما أجعلكَ تقرأه إن أنهيتُه.

قال بابتسامة وهو يدخل الغرفة لينام:

- أريد أن أُحيّيها تلك التي جعلت **"صغيرتي"** تقرأ!

ابتسمتُ.. أردتُ أن أعود إلي القراءة، ولكن مُقاطعته لي جعلتني أتشتت، فقررتُ أن أُبلغ مديري أني سآخذ يوم غدّ إجازة، لأُكمل هذا الكتاب عن آخره!

*****

بدأتُ من حيث توقفتُ البارحة، ولم أذهب لصُنع طعام الغداء إلا بعد أن تأكدتُ أن المسلمين انتصروا في غزوة بدر..

فقمتُ سعيدة لانتصارهم، كأنهم بعض أهلي!

بعد أن عاد **"ديفيد"** من العمل، وتناولنا الغداء.. ذهب هو لينام قليلاً.. أما أنا فذهبتُ لأرى ماذا فعل المسلمون فوق جبل أُحد..

بكيتُ بحرقة لمّا وجدتُ النبي **"محمد"** قد أُصيب في رأسه، وكُسرت أسنانه.. ولكني شعرتُ بالفخر من الرجال حوله الذي يدافعون عنه، ولو تكلف ذلك روحهم..

ظللتُ أقرأ اليوم كله، حتى وصلتُ إليه.. ذلك الرجل العظيم الذي تحمّل أعباءً كثيرة؛ لتصل رسالته إلى أُناس كثيرين..

وجدته يسند رأسه في حِجر زوجته، فأتخيله وهو يردد قائلاً

بابتسامته الجميلة: **"بل الرفيق الأعلى.. بل الرفيق الأعلى"**، فلا أفهم ما يقصده، حتى قالت زوجته.. **"عائشة"**، أن رأسه قد ثقلت في حِجرها!

بكيتُ بحُرقة، وبقلب يتفطر ألماً!

لقد مات! ذلك الرجل الحنون، الذي لم تمنعه أعباء دولته من أن يكون زوجاً رقيقاً!

مات! ذلك الذي أخرجه الناس وآذوه، ومع ذلك لم يرضَ أن يُطبق الملك عليهم الجبلين!

خرج **"ديفيد"** بسرعة، ثم جلس أمامي على ركبتيه وأمسك يدي قائلاً بقلق:

- حبيبتي.. كل شيء على ما يرام؟ فقط اهدأي واحكي لي.

ارتميت بين ذراعيه، محتضنة إياه ببكاء، وقلتُ:

- لقد مات.. مات الرجل العظيم الحنون.

ظل يمسح على ظهري، إلى أن هدأتُ قليلاً، ثم قال:

- عزيزتي، من الذي مات؟

ابتعدتُ عنه، ونظرتُ إليه وأنا أشعر بحرج شديد.. ماذا سأقول له الآن؟ الرجل الذي أقرأ سيرته مات؟

ولكني بالفعل قلتُها له، فأنا لم أعتد الكذب عليه مطلقاً.. رأيتُه يزفر الهواء المكبوت من صدره براحة، ثم نظر لي بعتاب وقال:

- لقد أفزعتِني، ومن أجل ماذا؟ قصة تقرأينها، بطلها قد مات!

لم يكذب **"ديفيد"** وقتها.. بالفعل لقد قرأتُ ذلك الكتاب كقصة مسلية، أو رواية ذات أحداث جميلة، ولم أتعلم قطُّ من هذه السيرة..

في المرة التالية التي ذهبتُ فيها لـ**"شذى"**، أعطيتُها الكتاب بعد أن شكرتُها..

سألتني إن كان هناك شيءٌ أسألها عليه، ولكني للأسف كنتُ قد نسيتُ معظم ما في الكتاب، فكما قلتُ لكَ يا ولدي..

للأسف جدتكَ كانت قد قرأت الكتاب كقصة مسلية، وحسب!

أخذتني من يدي إلى مكتبتها لأختار كتاباً يصحبني، ظلتْ عيناي تجوب حائرة؛ فلم أكن أعلم ما تحويه الكتب خلف عناوينها..

وقعتْ عيناي على كتابهم.. **"القرآن الكريم"**، نظرتُ إليها بابتسامة مُحرجة وقلتُ:

- هل أستطيع استعارة كتابكم؟

نظرتْ إليّ بحيرة، رأيتُها في عينيها.. ثم قالت:

- تقصدين **"القرآن الكريم"**؟ ولكن..

قاطعتُها بحماسٍ قبل أن تُكمل كلامها:

- أعدكِ، سأتطهر قبل أن أقرأ فيه.. فقط علّميني كيف أفعل ذلك**!**

ابتسمتْ، ثم أكملت كلامها:

- قصدتُ أنني لا أعتقد أنكِ ستستطيعين قراءته وفهمه جيداً.

سألتُها بعدم فهم:

- أليس كتاباً عربياً؟ ألستُ عربيّة.. لماذا لن أستطيع قراءته، أو فهمه؟**!**

تنهدت، ثم نظرت ناحية المكتبة وقالت :

- إن لُغته عربية نعم، ولكنها فصيحة بليغة.. في زمننا هذا الذي كادت أن تندثر به اللغة العربية، ليس من السهل على أي أحد أن يقرأ القرآن بطريقة صحيحة، ولو كان مسلماً.. ومع ذلك فلا بأس، سأعلمكِ الوضوء وأُعطيكِ المُصحف المرفق به التفسير.

كانت رقيقةً جداً معي، وهي تُعلمني كيفية الوضوء كأنها تُعلم طفلة صغيرة..

وبالطبع لم تنسَ أن تخبرني أنني لا يجب أن ألمس المصحف في الوقت الشهريّ..

وأنا لم أنسَ أن أخبرها بمرح:

- أرجو ألا تفهميني بشكل خاطئ، فأنا فقط قد غلبني الفضول لأعلم ما في كتابكم.. وهل يُشبه الإنجيل؟

ضحكت وهي تودّعني على باب منزلها:

- لا تقلقي، لم أفهمكِ خطئاً.. واعلمي مُسبقاً أن كتابنا الكريم، لا يُشبه إنجيلكم الحالي في شيء.. لا من قريب، ولا من بعيد**!**

عُدتُ إلى المنزل، بغنيمتي.. ولكن هذه المرة أنا التي اخترتُها بنفسي**!**

ولأنب كنتُ مُرهقة بعض الشيء، إضافةً إلى أن غداً يوم عمل.. فقد وضعتُ **"القرآن"** على الطاولة في الغرفة، وخلدتُ إلى نومٍ عميق..

*****

بعد هذا اليوم انشغلتُ بأشياء عديدة، ونسيتُ تماماً أن أُلقي نظرة على كتاب المسلمين..

*****

مرّ أسبوعان تقريباً.. وبينما كنتُ أُنظف الغرفة وأرتبها، إذ وقعت عيناي على **"القرآن"!**

هنا تذكرتُ أنه عندي، وأن الفضول كان سيقتلني لأعلم ما يحتويه..

وبينما أنا مُمسكةً إياه أتأمله، إذ سمعت **"ديفيد"** ينادي عليّ:

- عزيزتي.. هل تعلمين أين الـ..

نظرتُ إليه لأتبين كلامه، فوجدته ينظر لما بين يديّ بحاجبين معقودين، ثم سأل:

- **"ماري"**.. هل هذا **"قرآن"** المسلمين؟

ابتلعتُ ريقي بتوتر.. كِدتُ أن أُخبره أن صديقتي نسيته معي، ولكني فاشلةٌ في الكذب، كما أنها كذبة غير معقولة**!**

لذا أخبرتُه:

- انظر، لقد رأيته عند صديقتي.. أصابني الفضول لأعلم ما به.. صدقني.

زفر الهواء بضيق، ثم قال:

- أنا أخاف عليكِ أن تُلوّث أفكاركِ.. أخاف أن يأتي اليوم الذي تقولين لي فيه "لقد أسلمتُ".. خذي حذركِ منها، لأجلي!

وضعتُ ما بيدي على الطاولة مرة أخرى، ثم اقتربتُ منه مُمسكة يداه وقلتُ له بابتسامة:

- لا تخف، أنا قوية ومؤمنة.. والداي ربياني على الدين مذ كنتُ صغيرة!

*****

وبعد هذا الحديث بأسبوع، تعرضتُ لحادثٍ شديد اضطررت للمكوث في المنزل لشهر كامل، مُلازمةً للفراش..

فقام **"ديفيد"** بتقديم طلب إجازة لي، وكانت والدتي تجلس معي أغلب الوقت لتُساعدني في أموري..

وبعد الحادث بفترة شعرتُ بملل رهيب.. لم أعلم بماذا أُمضي وقتي، خصوصاً أني طوال عمري لستُ من هواة مشاهدة التلفاز.. كانت لدى **"ديفيد"** ثلاث روايات فقط، قرأتهن وما زلتُ أشعر بالخواء..

هنا تذكرتُ كتاب **"القرآن"**، ولحسن الحظ كان في درج الكومود الذي بجانبي.. مددتُ يدي بمشقّة لأفتح الدرج وأمسكُ المصحف، وغفلتُ عن حديث **"شذى"** لي أنه يجب عليّ التطهر قبل إمساكه..

وكأي فتاة لأول مرة تفتح مُصحفاً بحياتها.. لم أعلم بمَ أبدأ، ومن أين.. خطر ببالي أنه لربما به فهرس، ولكنه أيضاً لم يُجب تساؤلاتي، فقررتُ أن أجرب بنفسي..

فتحتُ المُصحف من نهايته، فقرأتُ أول ما قرأتُ **"سورة الإخلاص"**..
وبدأت بالقراءة على مهلٍ شديد.. بسم الله الرحمن الرحيم:
(قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَم يَلِد وَلَم يولَد ۝ وَلَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)..

ارتعد قلبي!
إن "قرآنهم" يقول أن الله واحدٌ أحد، وأنه لم يلد ولم يُولد.. ونحن عندنا "الأب، والابن، والروح القدس"، وأن "ابن الرب" قد صُلب ليُكفّر عن خطايانا.. فإن أحكمنا العقل السليم، سيعلم حتماً أن ما نقوله تناقض، فكيف يكون خالقاً وله ابن؟!.. حتى أننا إذا نظرنا في أنظمة الحكم، سنرى أنه يستحيل أن يحكم رئيسان، إلا واختلفا وتصارعا أيضاً!

ظللتُ أياماً كثيرة أقرأ في كتاب المسلمين.. لم أكن أقرأ بترتيب **"القرآن"**.. وكل يوم كان يتبين لي حقائق عظيمة، وكل يوم أشعر بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الدين بالتأكيد صحيح، وعظيم في نفس الوقت.. كل يوم كنتُ أُقارنه بما في إنجيلنا، فيتبين لي أنه فعلاً لا مجال للمقارنة!

ومع ذلك كنتُ لا أدري، أو بالأصح كنتُ أتغافل عن الخطوة التالية.. أتردد كثيراً، وأتراجع أكثر.. لم أكن خائفة من الخطوة بحد ذاتها، ولكني كنتُ أخشى ألا أكون على قدر المسؤلية، ولا أنكر أني كنتُ مع معرفة هذه الحقائق، إلا أني ظللتُ على الشك..
وما أدراني أن هذا الدين هو الصحيح؟

نعم علمتُ أن هناك حساباً وعقاباً.. وجنة وناراً.. ولكن ألم تقل لي **"شذى"** من قبل أن كل شخص يَدين بدين، هو بوجهة نظره الصواب؟ وكما في إنجيلنا آيات تجعل القارئ لها يقتنع، فالبتأكيد توجد مثلها في التوراة والقرآن!

زفرتُ الهواء من صدري بهمّ وحيرة، ثم شابكتُ أصابعي وقلتُ برجاء:

- أرجوكَ أيها الرب، أرني الصواب.. إن كان دين المسلمين هو الخير لي فاجعلني أعلم!

ثم قررتُ أن أنام قليلاً لأرتاح، وعندما أستيقظ أقرأ قليلاً في **"القرآن"**..

*****

بدأتُ أقرأ في **"سورة يوسف"**..
قصة جميلة كانت، وتعلمتُ منها الكثير من الدروس.. كنتُ أقرأ حتى وصلتُ للنبي **"يوسف"** وهو يقول للرجلين في السجن: **(يا صاحِبَيِ السِّجنِ أَأَرباب مُتَفَرِّقون خَيرٌ أَمِ اللَّهُ الواحِدُ القَهّارُ)؟!..**

هنا انهرتُ تماماً، وأصابتني نوبة بكاء وخوف شديدة.. ظللتُ أبكي بحرقة وأنا أردد:
- بل الله الواحد القهّار**!** بل الله الواحد القهّار**!**

*****

بعد أن هدأتُ قليلاً، كنتُ قد اتخذتُ قراري!

ارتديتُ ملابسي على عجل، وذهبتُ مُسرعة -بعد أن أخبرتُ **"ديفيد"**- إلى المكان الذي أثق به.. عند **"شذى"**!

استقبلتني بدهشة وترحاب معاً، وبعد أن دخلنا الغرفة سارعتُ بالقول:

- **"شذى"**.. هل كل من يُسلم، يدخل الجنة التي وعد الله بها الناس؟

ابتسمتْ، ثم جلستْ أمامي قائلة:

- نعم بإذن الله.. إذا مات على الإسلام!

قلتُ لها بحماس وفرح:

- إذاً، فأنا أريد أن أدخل الإسلام.

رأيتُ الدهشة والسعادة في عينيها وهي تقول:

- أنتِ متأكدة أليس كذلك؟ أعني لا يوجد شخص أجبركِ؟

هززتُ رأسي بالنفي، فوجدتُها تقول لي بسعادة لن أنساها في صوتها:

- الله الله! ما أجمل قراركِ! بارك الله فيكِ، ورزقكِ الثبات!

إذاً دعيني أخبركِ أولاً.

ثم شرحتْ لي ماذا يجب على المسلم، من صلاة وصوم وزكاة، وحج للمقتدر.. وأمور أخرى مهمة شرحتها لي ببساطة.. ثم أنهت كلامها بابتسامة:

- هل ما زلتِ على رأيكِ؟

أومأتُ لها بالإيجاب، فقالت:

- إذاً رددي معي.. **"أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"!**

قلتُ كما قالت، فاحتضنتني بسعادة كبيرة..

ثوانٍ، وسمعنا الآذان في المسجد المجاور، فقالت **"شذى"** بابتسامة:

- إنها صلاة العشاء.. أربع ركعات كما أخبرتكِ، هيا لنتوضأ ونُصليها معاً.

كنتُ أعرفُ الوضوء مُسبقاً.. فعلمتني **"شذى"** كيفية الصلاة بهدوء قبل أن نُصلي.. ثم أخبرتني:

- هذه الكيفية ثابتة في الخمس صلوات، ولكن عدد الركعات كما أخبرتكِ ستختلف.. صلاة الفجر ركعتان، وفي الركعتين نقرأ الفاتحة وسورة قصيرة.. صلاة الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات، نقرأ في الأولَتَين سورة الفاتحة، وسورة قصيرة.. وفي الأخرتَين نقرأ سورة الفاتحة فقط.. أما الصلاة المغرب، التي هي ثلاث

ركعات، نقرأ الفاتحة وسورة قصيرة في الأولَتين، ونقرأ الفاتحة فقط في الركعة الأخيرة.

ثم صمتت هُنيهة وأكملت بابتسامة:

- أريد منكِ أن تحفظي سورة الفاتحة، وأي سورة قصيرة بالتدريج حتى تستطيعي الصلاة بهما.

بعد أن أنهينا الصلاة، وأخبرتني **"شذى"** بعض الأمور عن الإسلام.. تذكرتُ أمراً مهماً، فسألتُها بحماسٍ سعيد:

- أريد أن يدخل زوجي الإسلام أيضاً.. أريد أن ندخل الجنة معاً إن شاء الله.

رأيتُ ملامحها تغيرت.. تنهدتْ وتحاشت النظر لعينيّ ثم قالت بخفوت:

- يمكنكِ أن تقومي بدعوته، وتُحببيه إلى الإسلام.

ثم أكملت بنبرة مضطربة متهدجة:

- **"ماري"**.. إن **"ديفيد"** لم يعد زوجكِ، لقد أصبح غير مَحرمٍ لكِ.. ما دمتِ دخلتِ الإسلام أصبح زواجكِ به باطلاً!

هنا يا ولدي شعرتُ أن قلبي تحول لأشلاء صغيرة.. كان هذا اختبارٌ من الله جل جلاله، وكان يجب أن أتثبت..
إما السعادة الفانية في الدنيا، والعذاب الدائم في الآخرة، أو الألم الفاني أيضاً في الدنيا، والنعيم والجنة الخالدة في الآخرة بإذن الله..
"يا الله، يا الله" صرختُ بها في داخلي، "يارب، ثبتني.. يارب، قوّني.. يارب، عوّضني"!

*****

ودّعتُ **"شذى"** بعد أن شكرتُها على إعطائها لي ملابس لديها لأرتديها.. كنتُ ألبس عباءة جميلة، وحجاباً أجمل..

عُدتُ إلى المنزل، وأنا أُحضّر كلاماً لأبدأ به.. وجدتُ **"ديفيد"** يجلس في غرفة المعيشة يشاهد التلفاز، فالتفت لي وكاد أن يتحدث ولكن بالطبع لمّا رآني أُلجم لسانه من الصدمة..
ظلَّ يحدّق بي طويلاً، ولم أستطع معرفة ما يدور بذهنه..
فقال أخيراً بفتور:
- فعلتِها؟!
قلتُ بثقة، لم أعلم من أين اكتسبتُها:
- نعم!

نظر بعيداً بأسى، وسأل:

- هل أجبرتكِ صديقتكِ تلك؟ بل هل أجبركِ أحد؟

نفيتُ برأسي قائلة:

- لا.. القرار نابعٌ من ذاتي.

تنهد، ثم سأل مرة أخرى:

- لماذا؟ ما الذي وجدِته في الإسلام ولم تجديه في المسيحية؟ المسلمون يزعمون ليل نهار أن دينهم يدعو إلى الأخلاق والرفق ونبذ التعصب! إذاً كيف يُبررون أفعالهم التي يجهرون بها؟

جلستُ على كرسيّ بعيداً عن **"ديفيد"**.. آلمني قلبي بشدة إذ أراني أتجنبه وأبتعد عنه، ولكن الثبات الثبات يا **"ماري"**، حتى يجعل الله مخرجاً!

أجبتُ على تساؤلاته بهدوء وثقة:

- بالنسبة لسؤالكَ الأول، فيكفي أن الإسلام ليس مُتناقضاً كالمسيحية.. ظواهر كونية، وأحداث تاريخية.. أحكام وشرائع تستخدمها أكبر الدول.. ربما كانت تتغافل أن الإسلام من وضعها، ولكنها ستظل الحقيقة.. وسيظل الإسلام عظيماً.. الإسلام هو أصح الأديان، يكفي أنه لم يُحرّف مثل التوراة والإنجيل الحاليَين.. قل لي بربكَ، كيف يُصدق العقل أن لهذا الكون ثلاثة أرباب؟! أو أن لخالق هذا الكون العظيم بما فيه، ابن؟ أليس الخالق يا

"ديفيد" يجب أن يكون عظيماً مُنزهاً عن مثل هذه التُّرّهات والنقائص؟

ثم صمتُّ لآخذ نفساً وأكملتُ:

- أما سؤالكَ الثاني، فالمسلمون مثل البشر جميعاً، فيهم الخيّر وفيهم السيء.. فعلاً الإسلام يدعو إلى أشياء كثيرة عظيمة وخيّرة، ولكن هل يضير الإسلام شيء إن لم يلتزم به أبناؤه؟ بالطبع لا، ذنبهم لأنفسهم، وهم الذين يتركون خيراً عظيماً.

ألهمني الله وقتها حديث النبي ﷺ، الذي قرأتُه في كتاب السيرة، فأكملتُ لـ**"ديفيد"** بقوة:

- لا يوجد شخصٌ معصوم من الخطأ.. المسلم، المسيحي، البوذي، اليهودي.. وكما قال نبينا ﷺ: **"كل ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطائين التوّابون"**.. كل البشر يفعلون أخطاء، وكلٌّ سيحاسب عليها بمفرده.

نظر لي طويلاً ثم قال بسخرية:

- أصبحتِ تتحدثين مثلهم.. كل المسلمين يقولون ذلك؛ يُبررون زلاتهم!

أجبتُه بقوة:

- بل أنا منهم الآن.. وبالنسبة لي، فأنا لا أبرر زلات أحد.. فقط أقول أن كل الأشخاص يُخطئون، والذكي العاقل فيهم من يتراجع عن خطأه!

كان الصمت ثالثنا لفترة قصيرة، إلى أن بادرتُه:

- **"ديفيد"**.. يجب أن نفترق إذا لم ترغب في دخول الإسلام، أصبحتَ منذ الآن مُحرّماً عليّ!

يعلم الله أن قلبي وقتها آلمني بشدة، أردتُ أن أبكي وأصرخ.. ولكني تذكرتُ قول **"شذى"** لي وهي تودّعني اليوم.. **"من تركَ شيئاً لله، عوّضه الله خيراً منه"**..

فارتاح قلبي بعض الشيء، وإني سألتُ الله وقتها من كل قلبي أني تركتُ **"ديفيد"** لله، فأرجو أن يعوضني الله بأفضل منه!

تحاشيتُ النظر إليه، ولمدة دقيقتين ظل الصمتُ سيد الموقف.. ظننتُ أنه غير مبالٍ لما أقوله..

ولكني لمّا التفتُّ إليه شهقتُ من الحزن والألم!

كان يبكي بصمت، محاولاً أن يُخفي دموعه عني!

وقد كنا نتجرع ألم الفراق معاً، يحترق قلبه فأشعر بألمٍ في صدري.. أشعرُ بغُصة بحلقي، فلا يقوى على الحديث!

ظللنا هكذا هو يبكي دموعاً بصمت، وأنا ينزف داخلي دماً**!**

حتى قال بتقطّع أدمى قلبي:

- هل هذا قرارككِ الأخير، ألا يوجد تراجع فيه.. ألا نستطيع أن نعيش سوياً ولو اختلفنا في الدين؟

هززتُ رأسي أن "نعم"..

وقتها يا ولدي لم أقوَ على الكلام، خشيتُ إن تحدثتُ أن تفضحني عَبَراتي وصوتي.. لذا لُذتُ بالصمت**!**

بعد فترة قلتُ وأنا أقوم من مكاني:

- سأجمع حاجياتي، وأذهب لأمكث مع والدتـ..

لم يدعني أُكمل كلامي، حتى صاح بسرعة:

- بالطبع لا، المنزل لكِ منذ الآن.. وأنتِ تعلمين أكثر مني أن ردة فعل والدتكِ لن تكون جيدة، لذا فهذا المنزل أأمن لكِ.

ثم قام وقبل أن يرحل التفت لي قائلاً:

- نحن الآن مُختلفَين في الدين، ولم نعد زوجين.. ولكنكِ ستظلين حبيبتي، وتحت حمايتي.. أرجوكِ يا **"ماري"**، إن تعرضتِ لأي أذى، فقط اتصلي بي وسأفعل المستحيل لأحميكِ.

كاد يقترب مني، ربما ليُمسك يديّ.. ولكني عُدتُ للوراء..
نظر لي نظرة أخيرة صامتة، ولكن بها الكثير من المشاعر..
ثم رحل!

*****

بعدها انشغلتُ بالكثير من الأحداث.. علمتْ والدتي من ملابسي وأفعالي أني أسلمتُ، كانت كبيرة في السن لذا لم تفعل شيئاً سوى مُقاطعتي وعدم التحدث إليّ.. ولكني أصررتُ على الإحسان إليها ووصْلِها، هكذا أمرني الإسلام حتى ولو كانت تؤذيني!

في البداية لم تتغير معاملتها لي، ولكن بعد فترة انفتحت إليّ قليلاً..
تركتُ العمل حتى أتفرغ لتعلم ديني أكثر، واكتفيتُ بمعاش والديّ..

قررتُ أن أُغيّر اسمي؛ لأقطع صِلتي بشخصيتي القديمة المسيحية.. سميّتُ نفسي **"زينب"**، وغيّرتُه في الأوراق الرسمية.. مثل ابنة النبي ﷺ التي تركت زوجها لأنه لم يكن مسلماً أول الأمر، وكانت قد أسلمتْ.. فعاد لها بعد فترة مسلماً مؤمناً..

لا أكذب إن قلتُ أني لستُ مهتمة بعودة **"ديفيد"**، وإسلامه.. ولكني أحاول شغل نفسي عنه بأي طريقة..

ليس الموضوع سهلاً، لقد أحببتُ **"ديفيد"** وتعلّقتُ به..
عشتُ معه أجمل سنوات عمري.. كل يوم، وفي كل صلاة أدعو أن يقذف الله الإسلام في قلب **"ديفيد"**، وأن يعود إليّ لنعيش معاً في حب الله وطاعته..

لم أكن أعرف كيف أدعوه إلى الإسلام.. إذا حادثته في الهاتف، أخاف أن يُغويني الشيطان فأخبره بكمّ الشوق الذي أشعر به تجاهه..
أصبح غريباً عني، فلا يجوز لي أن أقابله وأتحدث معه.. لم يبقَ أمامي سوى الدعاء له بالهداية!

أراكَ يا ولدي تتسائل كيف كانت ردة فعل من هم حولي..
اختلفت مشاعرهم كاختلاف قلوبهم..
من هم على المسيحية نظروا لي بسخرية أواشمئزاز!

أما المسلمون، فقد كانت ردة فعلهم جميلة جداً، خصوصاً صديقات **"شذى"**.. أعطوني هدايا كثيرة وجميلة.. منهن من أعطتني مصحفاً وسجادة صلاة.. أخرى أهدت لي ملابس جديدة محتشمة.. سعدتُ كثيراً عندما لم تجد منهن شيئاً

تعطيني إياه، ولكنني حفظتُ معها سورة من **"القرآن"**..
وكانت أجمل هدية لي..

*****

مرّ عامان، فعلتُ فيهما أشياء كثيرة ولله الحمد.. ولكني لا أذكر منها سوى أني التحقتُ بدار لتحفيظ القرآن، فأتممتُ حفظه كاملاً.. وبالتأكيد تعلمتُ أكثر وأكثر عن الإسلام.. فرائضه وسننه، مكروهاته ومستحباته، وهكذا..

*****

وذات يومٍ، وبينما كنتُ جالسة أتذكر ما أريد من حاجيات المنزل، إذ تذكرتُ **"ديفيد"!**

استبدّ بي الشوق إليه.. أريد أن أسمع صوته الحاني، أريد أن أغرق في عينيه العسليتين..
اشتقتُ لأن أُعدّ له الطعام ونتناوله معاً، بين مزاح وحديث..
اشتقتُ لأن أكوي له ملابسه، وأن يتصنع عدم معرفته لارتداء ربطة عنقه، فأساعده فيها وأنا أضحك..
اشتقتُ لحضنه الدافئ يوم أشعر بالضيق والحزن، يربّتُ على ظهري بحنان فأشعر أني امتلكتُ الدنيا كلها.. اشتقتُ لشعوري بالقلق عليه عندما يتأخر قليلاً في العمل، والشعور بالأمان فقط عندما يعود للمنزل..
أشياء كثيرة كنا نفعلها سوياً، انقطعتُ عنها لأنها دون **"ديفيد"** بلا طعم!

كدتُ أُمسك الهاتف وأحادثه، فقط لأسمع صوته ويذهب ولو قليلاً من هذا الشوق القاتل..
ولكن الله ثبّتني، فالحمد لله أن منّ عليّ بالثبات والتراجع عن ذلك القرار في تلك اللحظة!
قمتُ من مكاني لأتوضأ، ثم أمسكتُ المصحف لأقرأ وِردي..

وصلتُ لـ**"سورة يوسف"**.. تلك السورة التي كانت سبباً في دخولي الإسلام.. ظللتُ أقرأ بخشوع وهدوء، حتى وصلتُ لقول سيدنا يعقوب عليه السلام لأبنائه: (**...فَصَبرٌ جَميلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأتِيَني بِهِم جَميعًا إِنَّهُ هُوَ العَليمُ الحَكيمُ**)..

دمعتْ عيناي.. ظللتُ أرددها بقلبٍ راجف **"فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً"**.. اطمأنّ قلبي تماماً بعد هذه الآية، وكأنها رسالة من الله جل جلاله أن لو صبرتِ، سيأتيكِ الله به.. بإذن الله!

*****

بعد أسبوع، كنت أجلس مع أمي أقصّ عليها حكاية من السيرة النبوية..
كنتُ مواظبة على تلك الحال منذ أن رأيتُ أمي تَلينُ لي..
ومع أنها كانت تحاول إخفاء حماسها عندما أخبرها أني سأقصُّ عليها شيئاً، إلا أن لهفتها كانت تظهر بوضوح في لمعة عينيها.. وكثيراً ما كنتُ أمزح وأضحكُ معها في هذا الشأن..

قلتُ لها ببساطة:
- من ضمن الأشياء السيئة التي ألغاها الإسلام، الرقّ.. بالأحرى كان يحثُّ على تحرير العبيد.. فكان من يُريد من العبيد التحرر، أن يكتب إلى سيده مقابل مال يعطيه إياه العبد.. وكان ضمن الذين سعوا لذلك امرأة اسمها **"بَريرة"**، كانت متزوجة برجل اسمه **"مُغيث"**.. أيضاً فإن الإسلام ترك لها حرية الاختيار بين أن تبقى مع زوجها المملوك، أو تتركه بعد التحرر.. فقررت **"بَريرة"** أن تترك **"مُغيثاً"**، فكان يسير وراءها في طُرقات المدينة، يبكي ويترجّاها أن تعود إليه.. ولكن يبدو أنها لم تكن تحبه، وأن **"مُغيثاً"** هو الوحيد المُحبّ في هذه العلاقة.. لما رآهما النبي ﷺ، رقَّ لحال **"مُغيث"**، وقرر أن يحدث **"بَريرة"** علّها ترأف بحاله.. وقد قال النبي ﷺ لها: **"لو راجعتِه"**. فقالت

"بَريرة": يا رسول الله، أتأمرني؟ فقال ﷺ: **"إنما أنا أشفعُ"**. قالت: لا حاجة لي فيه.

صمتُّ قليلاً، ثم أكملتُ وأنا ابتسمُ باتّساع:

- أجمل ما في هذه القصة، أنها تُرينا جمال ورأفة المسلمين ببعضهم.. وأن الإسلام لم يأتي ليفرّق بين اثنَين يحبان بعضهما.. فطالما هما يناسبان بعضهما من حيث الثقافة والفكر وطبعاً الدين، فمن القسوة ألا يتزوجا لأسباب غبية، كما كان يحدث في الجاهلية قبل ظهور الإسلام.. وكما قال النبي ﷺ: **"لم يُرَ للمتحابّين مِثلُ النكاح"**!

أحاطنا الصمتُ فترة، قبل أن تتحدث أمي بهدوء:

- فعلاً الإسلام دينٌ جميل وعظيم.. يكفي أنه يأمركم ببر والدَيكم، ولو كانا مختلفين عنكم في الدين.. أعترفُ لكِ يا **"زينب"**، لقد كنتُ أستمع إليكِ وأنتِ تقصّين عليّ سيرة النبي **"محمد"**.. كنتُ أسمعكِ كثيراً وأنتِ تقرأين **"القرآن"**، آياته جميلة ومُريحةً للنفس بشكل لا يوصف.. فيه شرحٌ لأشياء كثيرة، وإجابات على تساؤلات لطالما شغلت العقل.. وصفٌ لعذاب النار بشكل يخاف منه أي أحد أن يدخلها.. وفيه وصفٌ لنعيم الجنة بطريقة أرجو أن أبقى فيها فلا أعود إلى الدنيا

أبداً.. كل يوم أحكّم عقلي، فأتأكد أنه الدين الصواب.. دين لا لبس فيه ولا تناقض.. دين أخلاق وعِزّة وقوة.. أقل ما يقال في ذلك أنه دين يأمر أن (وَكَتَبنا عَلَيهِم فيها أَنَّ النَّفسَ بِالنَّفسِ وَالعَينَ بِالعَينِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُروحَ قِصاصٌ..)، ونحن نتعلم مُذ كنا صغاراً التسامح السخيف، الذي يصل حد الضعف والجُبن.. وأنه إذا ضُربنا على خدنا الأيمن، نُدير الخد الأيسر بكل بساطة!

نتعلم أن الله ثالث ثلاثة، وأنه "الأب، والابن، والروح القدس"! وهذا شيء يأباه العقل السويّ، ولا يفهمه.. ولكن لا يهم..

"آمِن، وسيجعلك الربّ تفهم"! فنؤمن، ونحفظ دون تعقل.. وإيانا ثم إيانا أن نتحاور مع مسلم في أمور دينه، أو حتى يجعلنا الفضول نقرأ عن دينهم، لماذا؟ حتى لا نتأثر بهم! ولكن ما يُخفونه عنا أن الإنجيل الذي معنا الآن، به الكثير من الثغرات والتناقضات، التي ستكتشفها عندما تقرأ الدين الأصح.. دين الإسلام.

ثم رأيتُها تصمتُ، لتأخذ أنفاسها.. أنا أعرف هذه المقدمة.. وأسأل الله أن تكون هي ما بذهني..

رأيتُها تنظر لي مُبتسمة وقد دمعت عيناها ثم تقول:

- أُشهدك يا رب أني قد أسلمتُ لك، وآمنتُ أنه لا إله غيرك، وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله!

لم أستطع أن أتمالك نفسي، فارتميتُ في حضنها باكية بفرح.. ظللتُ أقبّل يديها ورأسها وأقول:

- الحمد لله يارب.. الحمد لله أن استجبتَ دعائي، مباركٌ لكِ الإسلام يا أمي العزيزة، وأسأل الله أن يثبتكِ عليه.

وما كادت تقول "آمين"، حتى سمعتُ جرس الباب يرن..
نظرتُ لأمي وسألتُها بتعجب:

- هل تنتظرين أحداً؟

نظرت إليّ ولم تُجب.. فقمتُ مسرعة لأرتدي عباءة وحجاباً، ثم ذهبتُ ناحية الباب.. لم أستطع رؤية الذي يقف، ففتحتُ الباب..
كانت مفاجأة بالنسبة لي أن أراه، وبعد كل هذه المدة!
لم أستطع أن أتحكم في نبضات قلبي المتسارعة، ويكأن قلبي لبث في خمول حتى هذه اللحظة!

ابتلعتُ ريقي ونظرتُ إلى الناحية الأخرى وقلتُ بحُزن:

- **"ديفيد"!** ما الذي أتى بك هنا؟**!**

أجابني، وقد خِلتُ أنه ابتسم:

- لم أعد **"ديفيد"**.. أصبحتُ الآن **"أحمد"**.

نظرتُ إليه بسرعة، وما كدتُ أتحدث حتى قاطعني صوت أمي وهي تقول، وقد ارتدت حجاباً على رأسها:

- **"أحمد"!** إنه أنت؟**! "زينب"**.. هل ستدعيه واقفاً على الباب**!**

أفسحتُ له حتى يدخل، دون أن أقول كلمة واحدة..

ولمّا جلسنا سوياً في غرفة المعيشة، أنا بجانب أمي..

و**"أحمد"** أمامنا على الأريكة الأخرى، بدأتُ الحديث بدهشة وانفعال لم أستطع إخفاءهما:

- مـ.. منذ متى؟

ابتسم ابتسامته، تلك التي تجعل قلبي يرفرف داخل جُنبات صدري بعنف.. ثم تحدث بصوته الهادئ:

- بعد أن افترقنا بشهرٍواحد، كان فضولي سيقتلني لمعرفة ما الذي جعلكِ تدخلين الإسلام.. جلبتُ كتابي المسلمين، **"القرآن"** و**"السنة"**.. ثم كتاب **"السيرة النبوية"**.. أصارحكِ بكل خجل أني اشتريتهما ونويت قراءتهما فقط لأُخرج منهما شيئاً علّي أستطيع به ردّكِ إلى المسيحية وإليّ.. ولكن عندما بدأتُ القراءة وتعمقتُ فيها

واشتريتُ تفسيراً للكتب، علمتُ أني أجهل من دابة! أول الأمر كنتُ أقرأ وأُقارن بين الإسلام والمسيحية، وحتى اليهودية.. ولمّا شُفي غليلي بالتأكد أن الإسلام دين لا تناقض فيه، دينٌ يرفع قدر المرأة وليس كاليهودية.. دين يُنزّه الله ﷻ عن النقائص التي تزعمها المسيحية كذباً.. انتقلتُ إلى المرحلة التالية، أن أقرأ **"القرآن"**..

في أول الأمر كان فضولاً مني لأعلم ما به، وهل هو يُشبه الإنجيل مثلاً؟ ولكن لمّا رأيتُني أنتقل من آية لأخرى، ومن سورة للتي بعدها.. تيقنتُ أن الإسلام فعلاً مختلفٌ عن أي دين، شرائع صحيحة، وأحكام مُنصفة.. إخبار الله ﷻ أن كل شخص سيتحمل نتيجة أفعاله، وأنه إن فعل خيراً سيُجزى عليه، وإن فعل شراً سيُعاقب عليه.. شعرتُ وقتها باحترام وتعظيم للإسلام، وأنه ليس كالمسيحية في هذا الشأن.. وأنه لا يُعقل أن يُصلب شخصٌ ليُكفر عن خطايا وذنوب أمته كاملة! علمتُ من القرآن والسنة أنه من أذنب ذنباً، فعليه أن يتوب إلى الله توبة صادقة وحسب.. وأن النبي ﷺ قال: **"كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ"**.. ونحن يُعلموننا أننا إذا أخطأنا نذهب إلى القسّ لنعترف بذنبنا، ويكأن القسّ يمتلك

صكوك الغفران! ظللتُ هكذا، أحترم الإسلام وأُعظّمه.. ولكن ما زال قلبي كالحجارة أو أشدُّ قسوة! كلما فكرتُ في الدخول إلى الإسلام، ترددتُ طويلاً.. وأقول لنفسي واهماً إياها "ربما لم يكن هو الدين الصحيح! ثم وما الضَيرُ في أن يكون للكون ثلاثة آلهة؟!" حتى هداني الله لأن أقرأ شيئاً من القرآن، علّي أهتدي لإجابة عن سؤالي هذا.. كما أُجيب عن تساؤلاتٍ كثيرة لديّ..
كانتا آيتين من **"القرآن"** من حطمتا قسوة قلبي، وأجابتاني على سؤاليّ هذين.. قرأتُ، بسم الله الرحمن الرحيم في **"سورة آل عِمران"**، **(إِنَّ الدّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسلامُ وَمَا اختَلَفَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ إِلّا مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغيًا بَينَهُم وَمَن يَكفُر بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَريعُ الحِسابِ)**، فكانت إجابة شافية لسؤالي الأول..

ثم فتحتُ **"سورة الأنبياء"**، حتى وجدتُ فيها.. بسم الله الرحمن الرحيم **(لَو كانَ فيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبحانَ اللَّهِ رَبِّ العَرشِ عَمّا يَصِفونَ)**.. ارتجف قلبي من الآية، وكانت القشة التي قصمت ظَهر البعير.

صمتَ قليلاً، ثم ابتسم مُكملاً:
- ذهبتُ إلى المسجد الكبير في الحي، كان بعد صلاة المغرب.. ذهبتُ إلى إمام المسجد وأخبرتُه أني أريد

الدخول في الإسلام، فرح كثيراً.. وبعد أن رددتُ الشهادتين وجدتُ الكثير من الرجال والشباب الذين أتوا إليّ والابتسامة على وجوههم ليهنئونني.. علمتُ وقتها أن المسلمين قد يختلفون في أمور كثيرة، ولكنهم يتفقون جميعاً في سعادتهم بدخول فرد جديد إلى الإسلام.

قاطعتُه بحزن:

- ولماذا لم تُخبرني أنكَ أسلمتَ من وقتها؟

تنهد ثم أجابني:

- كنتُ أريد بعض الوقت لأعرف الإسلام أكثر.. كنتُ أريد أن نتزوج بعد أن أحفظ القرآن، وأعرف جيداً الأحكام التي تهمني في حياتي.

لم أستطع تمالك نفسي، فصرختُ فيه:

- كان بإمكانكَ أن تُخبرني وتُسعد قلبي بإسلامكَ.. كان بإمكانكَ أيضاً أن تأتي لنتزوج ونجتمع معاً مرة أخرى بعد طول غياب، ولكنكَ كنتَ أناني.. أتعلم كم كان يحترق قلبي كل يوم وأنتَ بعيدٌ عني، كنتُ أبكي كل يوم سائلة الله أن يهديكَ إلى الإسلام، وأن تعود إليّ مسلماً.. هل زواجنا سيُعيق تفقهكَ في الدين وحفظكَ للقرآن؟ أنتَ واهمٌ إذ تقول أنه سيفعل.. من يمتلك العزيمة، سيفعل كل شيء لنيل ما يرجوه!

ثم نظرتُ إلى أمي بأسى وقلتُ:

- يبدو أنني كنتُ الوحيدة الغبية.. تُخبر أمي، ويعلمُ الله منذ متى**!** لماذا أخفيتِ ذلك الأمر عليّ؟ ها لماذا؟

وقبل أن تردّ أمي، قال **"أحمد"**:

- أنا من أخبرتُها ألا تقول لكِ شيئاً.. كنتُ أريد جعلها مفاجأة لكِ.

أجبته بسخرية:

- مفاجأة ها؟**!**

أجاب بهدوء:

- أعلم أني أخطأتُ بهذا القرار.. أنا آسف**!**

ساد الصمتُ لدقائق.. ثم قال **"أحمد"** بمرح، محاولاً إزالة هذا الجو الضبابي:

- إذاً أخبريني، لماذا لم تمكثي في منزلنا؟

قلتُ ببرود:

- لم أشأ تركَ أمي بمفردها.

ثم صحتُ فيه غاضبة:

- والآن، هيا اخرج من المنزل**!**

هنا صرخت فيّ أمي:

- **"زينب"!** لا يجوز ذلك.

بكيتُ بشدة وأنا أجيبها:

- وما الذي يجوز يا أمي؟ ها.. أن يُخفي عني لمدة عامٍ ونصف إسلامه! يتركني أتعذب بمفردي؟! هل هذا هو الصواب!

صرخ "**أحمد**":

- وهل تظنين أنكِ الوحيدة التي كنتِ تتعذبين؟ أنا أيضاً كان قلبي يؤلمني!

قمتُ من مكاني صارخةً فيه بنبرة مُضطربة:

- قلبي يؤلمني؟! واضح فعلاً!

ثم أشرتُ إلى باب المنزل قائلة:

- هيا اخرج، فلم يعد هناك ما يربطني بكَ.

نظر إليّ نظرة حزينة، وسأل:

- إذاً أنتِ لم تسامحيني؟

وأنا يا ولدي طوال عمري كنتُ ضعيفة أمامه.. أعطيته ظهري قبل أن أبكي وأجبتُه:

- ربما أحتاج وقتاً كي أسامحك.

ثم تماسكتُ والتفتُّ إليه قائلة:

- وإلى أن يأتي هذا اليوم، لا أريد أن أراكَ أبداً.

وذهبتُ باتجاه غرفتي، وقبل أن أغلق بابها سمعتُ والدتي تقول بأسف:

- أنا آسفةٌ يا بني، ولكنكَ لا تعلم كم دعت لكَ في صلاتها.. كانت كل يوم تحدثني عنك، وعن رغبتها أن تعود إليها مُسلماً!

فأجابها بأسى:

- لا عليكِ يا أمي.. أعترفُ أني قسوتُ عليها، هي التي لم أشأ أبداً أن أُحزنها.

ثم سمعتُ صوت باب المنزل، فعلمتُ أنه رحل..

أغلقتُ باب الغرفة، ثم شرعتُ في بكاء حاد.. أنا أيضاً قسوتُ عليه بحديثي، وقد اعتذر لي!

ولكن أخبرني يا ولدي ماذا كنتُ فاعلةً، وقد أغضبني ما فعل!

سمعتُ باب غرفتي يُفتح، فعلمتُ أنها والدتي.. مسحتُ دموعي ثم ارتميتُ بحضنها.. مسحتْ على ظهري ثم قالت بعتاب:

- بعد كل هذا تبكين؟! ماذا كان سيحدث لو أنكِ سامحتِه.. لقد شرح لكِ وجهة نظره، واعتذر إليكِ!

لم أعلم بمَ أجيبها، ولكني ظللتُ أبكي بحُرقة.. في الواقع كنا نحن الاثنين مخطئين..

هو لأنه أخفى عليّ أمره كل ذلك الوقت، وأنا لأني صحتُ فيه ولم أسامحه مع اعتذاره..

*****

مرّ شهر على هذا اليوم، وفي كل يوم تسألني أمي "ألم تسامحيه بعد؟" فأجيبها بمكر أن "ليس بعد"..
كنتُ قد سامحتُه بالفعل منذ ذلك اليوم، ولكني كنتُ أريد أن يشعر ولو قليلاً بمثل ما شعرتُ به!

*****

وفي يوم كنتُ جالسةً مع **"شذى"**، نتناقش في مواضيع عديدة.. إذ وجدتُ أمي تتصل عليّ:
- السلام عليكم.. أمي كيف حالكِ، هناك ضيوف سيأتون بعد قليل؟ حسناً سأكون عندكِ خلال نصف ساعة بإذن الله.. إلى اللقاء!

اعتذرتُ من **"شذى"**، ثم بدأتُ رحلة العودة للمنزل..

وصلتُ، وقد كان الضيوف قد أتوا بالفعل.. فتحتُ الباب، ولمّا دخلتُ اتسعت عيناي من الدهشة..

الضيوف كانوا **"أحمد"** وأخته.. كان جالساً يشرب ضيافته، وبجانبه أخته تضحك وتتحدث مع أمي.. أُغلق الباب مني بعنف من الهواء، فالتفتوا جميعاً لي.. ابتسمت أمي وقالت بمرح:

- ها قد عدتِ.. إذاً أقدم لكِ الضيوف.

ثم أشارت إلى **"أحمد"** وقالت:

- **"أحمد"**.. أكبر منكِ بستّ سنوات، وهو يعمل محاسباً بشركة (   ) للأغذية.. وهذه أخته **"سارة"**.

رفعتُ حاجبيّ بسخرية من هذه المسرحية الهزلية، ثم اتجهتُ إلى **"سارة"**، احتضنتها بودّ ورحبتُ بها.. وتجاهلتُ تماماً ذلك الجالس بجوارها..

جلستُ بجانب أمي، ظلتْ تحادث **"سارة"** لخمس دقائق تقريباً.. أما أنا فكنتُ أنظر لأظفاري متجاهلة الجميع تماماً!

حتى حمحم **"أحمد"** قائلاً يتصنع الحرج:

- إذاً، من دواعي سروري أن أتقدم لخطبة الآنسة **"زينب"**.. بالطبع إذا وافقتْ هي.

كدتُ أضحك بقوة، لولا أني تماسكتُ في اللحظة الأخيرة..

ظللتُ صامتةً لدقيقتين، حتى قالت أمي بمرح:

- السكوت علامة الرضا.

ثم أطلقت زغرودة طويلة، فقال **"أحمد"** بحماس:

- إذاً أتصل بالشيخ لنعقد القرآن؟

قلتُ بسخرية، أُكمل معهم هذا التمثيل:

- ولمَ التعجّل؟ ألا يجب أن نتريّث حتى نتعرف على بعضنا أكثر؟!

تجاهلني **"أحمد"** تماماً، وهو يُخرج هاتفه ليتصل على المأذون.. قرصتني أمي في ذراعي، نظرتُ إليها مُتألمة وأنا أعقد حاجبيّ..

سحبتني **"سارة"** من ذراعي لندخل الغرفة.. أخرجتْ لي من خزانة الملابس فستاناً..

فجأة أطلقتُ ضحكة مجلجلة، فنظرت إليّ **"سارة"** وهي تصفف شعرها متسائلة:

- ماذا دهاكِ؟

لم أُجبها..

وبعد ساعة بالضبط، كنا قد ذهبنا لنفس المسجد الكبير الذي أسلم به **"أحمد"**، وعقدنا قرآننا.. وما كدنا نعود لمنزل أمي ونستريح قليلاً، حتى أمسك بيدي وقال بمرح لأمي وأخته:

- أستميحكنّ عذراً، ولكن سنذهب الآن إلى منزلنا الذي اشتقنا إليه!

وبعدما عُدنا للمنزل، ثم جلسنا في غرفة المعيشة.. بدأ **"أحمد"** كلامه قائلاً بهدوء وهو يمسك يديّ:

- اعتذر إن فاجئتكِ مرة أخرى، ولكن إن أخبرناكِ كنتِ ستتمنعين.

سألتُه بهدوء:

- وكيف عرفتَ أني لن أُحرجكَ مثلاً وأرفض في وجهك؟

قهقه، ثم قبّل يديّ ورأسي قائلاً:

- أنا أعرفكِ أكثر من نفسي!

نزلتْ دمعة مني، فمسحها بيده.. قلتُ معتذرة:

- **"أحمد"**، أنا آسفة.. لم أقصد جرحكَ بكلامي ذاك اليوم.. ولكني فعلاً تضايقتُ أنكَ تركتني كل هذا الوقت ولم تُخبرني..
كل يوم في غيابكَ كنتُ أبكي وأتألم.. في كل صلاة، وفي كل وقت.. وطوال السنتين لم أملّ من الدعاء لكَ أن يهديكَ الله للإسلام.

ابتسم لي بتأثر، واقترب مُحتضناً إيّاي بقوّة!

ساد صمتٌ لثوانٍ، ثم سألتُه بخفوت:

- ألم تُفكّر في دعوة **"سارة"**؟ حزنتُ كثيراً عليها عندما رأيتُها اليوم.

تنهد بأسى، ونظر بعيداً ثم أجابني:

- **"سارة"**، عندما علمتْ أني أسلمتُ ظلت فترة طويلة مُقاطعةً إياي.. ثم بدأت تعتاد بعض الشيء، ولكنها قالت لي ألا أحاول أن أثنيها عن المسيحية**!** ولكني لم أيأس، كنتُ مثلاً أرفع صوتي قليلاً عندما أقرأ **"القرآن"**، علّ آية تدخل قلبها.. ولكنها كانت تغلق الباب على نفسها حتى لا تسمع شيئاً.. كنتُ أتعمد ترك المصحف أو كتاب السيرة على مرآىً منها.

ثم نزلت دمعة منه وأكمل:

- أخشى عليها من أن تموت على غير الإسلام، وكيف لا أفعل وهي أختي**!** أُصبّر نفسي أنه: **(إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يَشاءُ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ)**.

تنهدتُ مُطرقة رأسي وقلتُ له:

- أسأل الله أن يهديها للإسلام كما هدانا، وليس ذلك على الله بعزيز.. وأسأل الله لنا جميعاً حُسن الخاتمة**!**

*****

وقد كان **"أحمد"** لي نِعم الزوج والرفيق.. وكيف لا وقد كان كذلك قبل إسلامه، والإسلام إنما جاء ليُتمم مكارم الأخلاق..

تعاهدنا على مراجعة **"القرآن"** سوياً.. في نهاية الأسبوع كنا نجلس معاً.. يشرح لي جزءاً من الفقه، وأعلّمه شيئاً من التجويد.. عندما كان يحضر درساً أُقيم في المسجد، يعود فيشرح لي ما تعلمه.. كل يوم كنتُ أحمدُ الله ﷻ أن رزقني بـ**"أحمد"**..

*****

مرت ستة أشهر.. وذاتَ يوم استيقظتُ من النوم بشعورٍ غريب، غثيان بشكل لا يوصف..
وما كدتُ أصل للحمام، لم أستطع تمالك نفسي حتى استفرغتُ ما في بطني.. سألتُ نفسي، "ماذا أكلتُ البارحة؟ لا أعتقد أني أكلتُ شيئاً دسماً**!**"..

وبعد هذا اليوم بأسبوع، كنتُ و**"أحمد"** نزور أمي.. كانت تحدثني في موضوع هام، وكان **"أحمد"** جالساً يقرأ كتاباً.. فجأة شعرتُ بذات الغثيان، والرغبة في القيء.. قمتُ بسرعة وأنا أضع يدي على فمي ذاهبةً إلى الحمام، بعد أن انتهيتُ

وجدتُ أمي و**"أحمد"** واقفَين وعلامات القلق على وجوههما.. غسلتُ وجهي ثم خرجتُ قائلة لهما بإرهاق:

- لا تقلقا، ربما أكلتُ شيئاً ثقيـ..

قاطع كلامي رغبتي الملحة في القيء.. غريبٌ أمر جهازي الهضمي، وكأنه في سباق مع الزمن!

غسلتُ وجهي مرة أخرى، فسمعتُ أمي تخبر **"أحمد"** بابتسامة:

- اذهب إلى الصيدلية، واحضر اختبار حمل.. هيا بسرعة!

ركض **"أحمد"** ليذهب كما قالت له أمي، أما أنا فعقدتُ حاجبيّ وسألتُ أمي:

- اختبار حمل؟ أمي إن الطبيب أخبرني بعدم وجود أمل في الحمل.

تجاهلتْ أمي حديثي، وسألتني بابتسامة هادئة:

- منذ متى وأنتِ هكذا؟

صمتُ قليلاً لأتذكر، ثم أجبتها:

- أسبوع أو أكثر قليلاً!

عاد **"أحمد"**، فذهبتُ لأقوم بالاختبار..

خطان!
لا أصدق ذلك.. خرجتُ مُسرعة وارتميتُ بحضن **"أحمد"** بسعادة.. دمعتْ عيني وصحتُ بفرح:
- خطان يا **"أحمد"**.. أنا حامل! ستصبح أباً عما قريب.

لم يُجب عليّ من الصدمة، أما أمي فأطلقت زغرودة من السعادة..
وبعد أن استوعب أن هذا الأمر حقيقي، حملني وظل يدور بي في الغرفة وهو يقهقه من السعادة!

صاحت به والدتي بمزاح:
- انتبه، فأنتَ تحمل الآن روحين.
توقف بسرعة، ثم أنزلني على الأريكة بهدوء.. قال لي بابتسامة وهو يمسك يدي:
- أنا سعيدٌ جداً! الحمد لله على هذه النعمة!
هيا ارتدي شيئاً بسرعة حتى نذهب للطبيبة.

*****

كنتُ يا ولدي في بداية شهري الثاني، وكنتُ يا ولدي أحملُ أباكَ بين فؤادي.. أولم يأتِ بعد طول انتظار؟**!**
شاء الله أن يتأخر في المجيء حتى يأتي مُسلماً، لأبوَين مسلمَين.. فالحمد لله أن رزقني به، وأسأل الله أن يرزقني برّه إلى يوم يُبعثون..

جدتكَ،
"زينب"

رغد أيمن